امتحان الحبّ الإلهي



حذِّر ا∐ سبحانه وتعالى المؤمنين الأتقياء من اتّخاذ اليهود والنصارى أولياء أو رؤساء يتحكمون بهم، وقد شدَّد ا□ سبحانه بتهديد هؤلاء المؤمنين، بأنَّه سوف يأتي بقوم يشيَّدون عمارة الدين مع حبِّ متبادل بينهم وبين ا□ سبحانه.. فقال سبحانه مبتدأ جملة من الآيات: (يـَا أَيُّهُا الَّـَذِينَ آمَنهُوا لا تَتَّخِذُوا الـْيَهُودَ وَالنَّصَارِيَ أَوْليِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْليِيَاءُ بَعْضٍ ٍ) (المائدة/ 51)، ثمّ ختمها بقوله سبحانه: (ياً أَيُّهَا الَّدَيِنَ آمَنُوا مَن ْ يَر ْتَدَّّ مينْكُمْ عَنْ ديِنيه فَسَوْفَ يَأُ تَيِي اللَّهُ بِقَوْمٍ ينُحيِبُّهُمْ وَينُحِبُّونَهُ أَنَذِلَّتَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزِسَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهَ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائهِمٍ ذَلَكَ فَضْلُ اللَّهَ ِ يَّؤْتَيِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسْعِ ۗ عَـٰلِيم ۗ) (المائدة/ 54). والارتداد هنا بمعنى الرجوع عن الدين بناء على موالاة اليهود والنصاري.. والظاهر من المعنى القرآن أنَّ الحبُّ المتبادل بين ا□ سبحانه والمؤمنين هي الصفة الأولى في تركيبة القوم الذي تذكرهم الآية، مع صفات المودة والتراحم بينهم، والشدة والبأس مع الكافرين، وجهادهم المستمر في سبيل رفع راية الإسلام.. وبالتأكيد فإنَّ الرسالة الإسلامية ليست مقصورة على قوم معينين بالذات كالعرب مثلاً، وإنَّما هي رسالة إلهية سماوية لكلَّ البشرية على وجه هذا الكوكب، فإن تخلى عنها العرب، فإن ّ ا□ سبحانه سيبعث من يحمل الراية من قوم آخرين.. وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم، فقال تعالى: (فَإِنْ يَكَّفُرُ بِهَا هَوَّلُاء ِ فَقَدْ وَكَّلَاّنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسْهُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) (الأنعام/ 89)، وقال تعالى: (و َم َن ° كَفَر َ فَاإِن َّ اللهَّهَ غَنرِي ٌّ عَن ِ الـْعَالـَمِينَ) (آل عمران/ 97)، وقال تعالى أيضا ً: (إِنْ تَكَّفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمَيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنَرِيٌّ حَمَيدٌ) (إبراهيم/ 8).

ولعلّ البشرية المعاصرة تمرّ في امتحان قاسي، عليها أن تجتازه اليوم، وإّلا فإنّ المصير موحش وقاتم.. ولا شيء يستطيع أن ينقذ هذه البشرية من عذاباتها وآلامها غير الإيمان با□ سبحانه، وحبّها له.. إنّ الارتداد والرجوع عن دين ا□ سبحانه إنّما هو بداية الانحطاط الأخلاقي والحضاري للأُمّة.. فلا شيء يشبع روحية الإنسان ويجعله عنصراً فاعلاً منتجاً في المجتمع غير إيمانه بعقيدة التوحيد، ولو استقرأنا التاريخ لوجدناه مليئاً بالعبر، ابتداءاً من الحضارات القديمة وانتهاءاً بالحضارات الحديثة، وما الانحطاط الاجتماعي للحضارة الغربية اليوم عنا ببعيد..

وقد نادى القرآن الكريم باتباع الرسول (ص)، وجعل محبّة ا□ مقرونة باتباع الرسالة السماوية، حيث جاهد رسول ا□ (ص) من أجل تبليغها للناس، فقال تعالى: (ق ُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِيبٌ ُونَ اللّهَ وَ اللّهَ عُورُ رَحِيمُ) جاهد رسول ا□ (ص) من أجل تبليغها للناس، فقال تعالى: (ق ُلْ وَ اللّهَ عُورُ اللّهَ عُورُ رَحِيمُ) فَا تّ بَعْ وَ اللّهَ عُورُ اللّهُ عُورُ اللّهُ عُورُ اللّهُ عُلَى الحبّ حقيقة (عمران/ 31)، والمعنى هو إن كنتم تريدون أن تخلصوا □ في عبوديتكم بالبناء على الحبّ حقيقة فا تبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحبّ الذي يمثله الإخلاص والإسلام وهو صراط ا□ المستقيم الذي يسلك بسالكه إليه تعالى، فإنّ اتبعتموني في سبيلي وشأنه هذا الشأن أحبّكم ا□ وهو أعظم البشارة للمحب، وعند ذلك تجدون ما تريدون، وهذا هو الذي يبتغيه كلّ محبّ بحبّه، وهذا هو الذي تقتضيه الآية الكريمة بإطلاقها.

والواقع أن دعوة الرسول (ص) إلى الإيمان با □ لم يكن لتثنيها سيوف المشركين وحرابهم، طالما كان هناك تسديد إلهي لهذه الرسالة. يقول تعالى: (فَإِنْ حَاجَّوُكَ فَقُلْ أَسْلاَمَهُ وَجْهِيَ لَيْلاً تَهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ) (آل عمران/ 20)، ويقول أيضا ً: (ثُمَّ جَعَلاْناكَ عَلاَى عَلَى شريعة مِنَ الأَمْر فَاتبعها) (الجاثية/ 18)، ويقول تعالى على لسان النبي (ص): (قُلْ هَذِه سبيلي الأَد عُو إِلَى اللهِ مَا اللهِ عَلَى بَصِيرَة اللهُ اللهُ وَمَن اتَّبَعَدي وَسُبْهُ حَانَ اللهِ وَمَا أَد عَالَى عَلَى اللهُ وَمَا اللهُ عَلَى اللهُ وَمَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ وَمَا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى هَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ عَلَى الل

وتتشكل بهذا المنظار الرائع صورة الحبّ الإلهي للمؤمنين المخلصين المتكاتفين الذين لا يبغون شيئا ً من هذه الحياة الفانية غير الفوز برضوان ا□ وحبّه.. وكما ألفنا الحياة بامتحاناتها ومواقفها الصعبة.. كذلك الحبّ الإلهي، حيث الاختبارات المتواصلة للإنسان المؤمن المحبّ.. ومهما كثرت الاختبارات وصمد الإنسان فيها واجتازها بصبر وثقة با□، ازداد اعتناء ا□ سبحانه وحبّه لهذا الإنسان المؤمن الصابر..

إن "المحن التي يمر " بها المؤمنون في زحمة الحياة المعاصرة، تتطلّب جهودا ً مضاعفة للثبات والصمود، خاصة وأن "المتغيرات الحديثة في حياة الأُمم، جعلت الإنسان العادي وكأنه ريشة في مهب الريح.. بينما يريد ا سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا وكأنهم بنيان أحكم بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.. (إِن " َ اللّ مَ يُح ِب " ُ السّ َذ ِين َ ي ُق َات َل ُون َ ف ِي س َب ِيل َه مَ عَادَ مُ عَنْ مُ وَسُ وُنُ (الصف/ 4).

إنّ الحب الإلهي للإنسان المؤمن تكريم وقيمة لا تثمّن.. وإنّ حب المؤمن □ سبحانه لبنة أساسية من لبنات شخصيته الإسلامية المتميّزة.. فهي التي تهذّ ِب سلوكه في الحياة، وهي التي تمنحه التسديد الروحي الذي هو بأمسّ الحاجة إليه في خضمّ ِ هذه الحياة القلقة المضطربة.

المصدر: كتاب الأخلاق القرآنية (2)